

المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية بالجزائر (1830-1962) الأسطورة القبائلية البربرية نموذجاً

د. همال عبد السلام
جامعة المسيلة - الجزائر

في سنة 1875م كتب الباحث، والمترجم العسكري الفرنسي ارنست مرسى Ernest Mercier (1820-1907) «مرت أربع وثلاثون سنة على احتلال الجزائر . وخلال هذه الفترة ظهرت مدرسة تاريخية حقيقة بها¹» ومن بين أعلام هذه المدرسة الذين ذكرهم الباحث المذكور: بيربرجي Berbrugger، ولاكروا Lacroix، وبول Poulle. وواصل مرسى حديثه مفتخراً.

«بفضل هؤلاء العلماء الذين نذكر غالباً أعمالهم، أنيرت نقاط كثيرة من تاريخ شمال إفريقيا، كان يحيط بها الظلام في الماضي»²، وإذا كان مرسى حدد منطلقات هذه المدرسة. فإن مؤرخاً استعماري آخر هو ستيفان غزل Stéphane Gsell (1864-1932)³ بين طبيعة هذه المدرسة وأهدافها الاستعمارية في مقال كتبه عشية احتفال فرنسا بمرور قرن على احتلالها للجزائر (1830 - 1930): «إن الواقع الجديد الذي ترتب عن الحملة العسكرية على الجزائر العاصمة، فرض على المؤرخين القيام بواجبات جديدة، كإجراء بحوث عن أصول السكان الذين اصطدم بهم الجيش. وأيضاً معرفة عاداتهم ونظمهم وعقائدهم . والأكثر من ذلك: دراسة الاحتلال والاستيطان الروماني لهذه البلاد. من أجل استخلاص الدروس والعبر للاستفادة منها في إدارة المستعمرة الجديدة»⁴.

وقد قسمت فترات البحث التاريخي في هذه المدرسة إلى مرحلتين - الأولى تمتد من 1830-1880 م - والتي ساهمها غزال المدرسة الجزائرية القديمة⁵.

في حين يذهب الباحث محمد العربي معريش، إلى أن المدرسة الاستعمارية القديمة تعود إلى ما قبل 1830. حيث قدمت أبحاثاً عن تاريخ الجزائر، والمغرب الأقصى واستمرت إلى مطلع الثمانينيات،

المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية بالجزائر (1830-1962) الأسطورة القبائلية البربرية نموذجاً

وهو تاريخ قريب من احتلال تونس وأيضاً استعداد فرنسا لاحتلال المغرب الأقصى فيما بعد⁶. والمؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله، أطلق عليها اسم عهد المؤرخين العسكريين⁷، لأن معظم الباحثين خلال هذه المرحلة كانوا من العسكريين العاملين في صفوف الجيش الفرنسي المحتل. و الظاهر أن سنة 1837م كانت حاسمة في حياة هذه المدرسة ففيها أنشأت وزارة الحربية لجنة علمية سميت (لجنة أكتشاف الجزائر العلمي)⁸.

وقد ضمت هذه اللجنة عدة تخصصات مثل الآثار، الأثنوغرافيا، الجغرافيا، التاريخ، الجيولوجيا، النبات، المعادن والتعدين وغير ذلك⁹، وقد ترأسها الضابط بوري دي سان فنسان Bory de saint- Vincent¹⁰. أما أعضاء اللجنة فلم يبق ثابتاً كما حدد أول الأمر. إما بموت البعض أو استقالة البعض الآخر. ولكنها في نهاية الأمر اقتصرت على عضوية عشرين عضواً فقط¹¹.

وقد حطت رحالها بالجزائر سنة 1839م. إلا أنها شرعت في العمل سنة 1840، واختيرت سنة 1842م كآخر أجل لتقديم أعمالها واللائق للانتباه أن أغلب أعضاء اللجنة من العسكريين. وبعض الباحثين الذين شاركوا في هذه اللجنة ما تزال أسماء أبحاثهم تتردد إلى اليوم من أمثال بيليسيه دي رينو de Reynaud pellissier، وكاريت Carette، ودوما Daumas، وترملي Trumelet، ورين Rinn وغيرهم، وقد غلب على إنتاج اللجنة الترجمة أكثر من التأليف. وكان الدافع وراء إنشاء اللجنة العلمية «معرفة شعب وقع في قبضة الحضارة الأوربية». وجمع المعلومات عن الخصم من أجل السيطرة والاحتلال. وقد كان هؤلاء الباحثون يقيمون مع الجيش الاستعماري ويتحركون وينتقلون معه ويدرسون المناطق التي وقعت تحت سيطرة الجيش. الواقع أن الفرنسيين لم يخفوا الطابع الاستعماري لهذه الدراسات. فقد قال أحدهم هو غوستاف مرسى Mercier Gustave «إن البحث العلمي سار جنباً إلى جنب الاحتلال العسكري وأن الاحتلال العلمي قد سار إلى جنب تلقيح الأرض»، وهو محق في ذلك، لأن احتلال الجزائر لم يتم بقوة الحديد والنار فقط، وإنما بكل أدوات الغزو الفكري، كالمطبعة والصحيفة والمستشرقين.

واللجنة العلمية المذكورة تشبه تلك التي أنشأها نابوليون أثناء حملته على مصر، والتي وضعت حصيلة أبحاثها في كتاب وصف مصر، وعلى غرار لجنة نابوليون أصدرت اللجنة العلمية في الجزائر أبحاثها واتسمت بعض الأعمال بالكراهية، و الحقد على العرب والمسلمين، أما المرحلة الثانية من عمر هذه المدرسة فقد حددها سعد الله بين (1880-1954) والأصح أن نهاية هذه المدرسة

المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية بالجزائر (1830-1962) الأسطورة القبائلية البربرية نموذجاً

التاريخية الاستعمارية كان في سنة 1962 وهي السنة التي نالت فيها الجزائر استقلالها، والتي واكبت الهروب الجماعي للمستوطنين الأوربيين أيضاً وليس سنة 1954.

وسنة 1880 م هي التي ظهر فيها قانون إنشاء المدارس العليا في الجزائر، تلك المدارس التي تحولت سنة 1909م إلى جامعة الجزائر وقد تميزت هذه المرحلة من عمر هذه المدرسة بالآتي: تراجع العسكريين الذين برزوا في المرحلة الأولى وحل محلهم أهل الاختصاص من الباحثين والمؤرخين المحترفين.

أما البحث فقد اتسع ليشمل كامل تاريخ إفريقية الشالية أي تونس والمغرب الأقصى.. وقد تزامن ذلك مع بسط فرنسا لسيطرتها على هذين البلدين، ومن إيجابيات هذه المدرسة أن الباحثين والمؤرخين عرفوا بالجدية والصرامة فتنوع الإنتاج، وتكاثر عبر الأيام.

ويبدو أن التخصص كان يجري بطريقة تختلف عما هو سائد في هذه الأيام، فقد يكون الباحث أثرياً ومؤرخاً ومترجماً للنصوص العربية، وربما جمع تخصصات كثيرة ولعل روني باسي René Basset (1855_1924)¹²، خير من يمثل هذا الصنف المتميز من الباحثين. فقد كانت اهتماماته متنوعة: البيلوغرافيا، والتقارير العلمية، والتاريخ الديني، والإثنوغرافيا، والفنون الشعبية، والتاريخ، والجغرافية الإفريقية، واللغات الإفريقية، بالإضافة إلى اللغات العربية والبربرية والإثيوبية، وتجدر الإشارة إلى أن بيلوغرافيا أعمال باسي وصلت صفحاتها إلى الأربعين. أما تقديم الكتب، والوثائق الفلكلورية التي بعثها إلى مختلف الدوريات فتعد بالمئات¹³. ويجب التذكير هنا أن هذه المدرسة لم يقتصر نشاطها على اختصاص واحد معين خلال هذه المرحلة الثانية، من عمرها وإنما كانت اهتماماتها متنوعة في اللغة والأدب، والفن والفلكلور، والآثار، والإثنوغرافيا، والتاريخ. ويبدو أن الهيئات الاستشرافية، في القارة الأوروبية، كانت راضية عن أعمال هذه المدرسة. والدليل على ذلك اختيار مدينة الجزائر العاصمة، كقر لانعقاد المؤتمر الرابع عشر- للمستشرقين. الذي انعقد فعلاً في الجزائر في شهر أفريل سنة 1905، وشارك فيه خمسمائة مستشرق وترأس أشغاله روني باسيه المذكور سابقاً عن جدارة واستحقاق¹⁴.

ويظهر أن الرؤية الموضوعية للأحداث التاريخية كانت غائبة إلى حد بعيد وعلى العكس كانت الأحكام المسبقة هي السائدة¹⁵.

فقد كان المؤرخون الاستعماريون، يخضعون تاريخ الشمال الإفريقي، عبر مختلف عصوره، وحقه لأحكام جاهزة كانت تتردد باستمرار في أبحاثهم، ومع مرور الوقت أصبحت بعض الأعمال أقرب إلى الدعاية الفجة منها إلى البحث التاريخي القائم على البعد العلمي المؤسس على النية الزمنية، والهدف من وراء ذلك بدون شك هو إعطاء مصداقية للاستعمار، وتبرير وجوده في الديار المغاربية عامة والجزائرية خاصة وإليك بعض النماذج:

شمال إفريقية استعمر منذ نهاية عصور ما قبل التاريخ: « منذ نهاية عصور ما قبل التاريخ اتخذت العلاقة القائمة بين البربر والبلدان المتوسطية الأخرى أكثر تحضراً شكلاً استعمارياً ».¹⁶

عدم أهلية شمال إفريقية للاستقلال « كلما توغلنا في تاريخ شمال إفريقية لاحظنا أن كل شيء يحدث كما لو كانت هذه المنطقة قد أصيبت بعدم أهلية للاستقلال ».¹⁷

المقهرون دوما: « كلما توغلنا في الماضي لاحظنا سلسلة متصلة من الاحتلال الأجنبي فالفرنسيون حلوا محل الأتراك الذين خلفوا العرب. وكان هؤلاء العرب حلوا محل البيزنطيين الذين سبقهم الوندال وكان هؤلاء الوندال قد قاموا مقام الرومان الذين خلفوا القرطاجيين. ولا بد أن نشير إلى أن الغزاة مهما كانوا يظنون أسياة المغرب إلى أن يخرجهم منه غزاة جدد فما أفلح الأهالي يوماً في طرد الغزاة الأسياة »¹⁸ وبعض هذه الأحكام الجاهزة التي تزخر بها كتابات المؤرخين المحترفين الاستعماريين، تعود إلى نوع من الكتابة التاريخية ظهر منذ العقود الأولى التي أعقبت احتلال الجزائر سنة 1830 م فيها مغالطات كثيرة، ومبالغات عديدة ولبعدها عن المعقول، أطلق عليها بعض الباحثين اسماً مثيراً، قد يشير السخرية لأول وهلة هو « الأسطورة ».¹⁹

وفي سبيل تفتيت المجتمع الجزائري والقضاء على روحه المعنوية وبث الفرقة والبلبلة بين صفوفه لإجباره على الاستسلام والخنوع. حاول المستعمر تشويه كل ما يمت بصلة لهذا المجتمع بداية من عناصره البشرية، كالعرب والبربر، فهذان العنصران تعرضا بدورهما لعمليات جراحية محكمة في مخابر الاستشراق الفرنسي، فقطعت أوصال وبترت أعضاء، وتحول أبناء الوطن الواحد، إلى أشكال، وألوان فسيفساء، وجزر بشرية لا يجمعها جامع، ولا يربطها رابط.

فهم: بدو وحضر-، وقبائل وبطون، ومرابطين وغير مرابطين، قبائل وشاوية وطوارق وميزابيين.

أما الانتماء الحضاري من دين ولغة وتاريخ وعادات وتقاليده وفلكلوره فتعرضت إلى تشويه ومسح قد لا نجد له نظيرا حتى عند أشد الأنظمة العنصرية تطرفا في القرن العشرين. لأن الفرنسيين أدركوا منذ الوهلة الأولى أن الخطر الذي يهدد كيانهم ينبع دائما من عناصر الهوية الجزائرية هذه. وحتى الجغرافيا مسها التشويه فقسمت وجزئت: السهل والجبل والصحراء، والشمال والجنوب والشرق والغرب.

كل هذه المكونات البشرية والمعنوية والمادية المذكورة كانت محل دراسات وأبحاث تكفل بها في بداية العهد الاستعماري الفرنسي الباحثون العسكريون ثم أنشئت جامعة الجزائر الاستعمارية التي فتحت أبوابها رسميا سنة 1909، فواصلت المشوار وسلكت نفس الدرب وبسبب المناهج الغريبة التي استخدمها العسكريون ثم الجامعيون في أبحاثهم هذه التي اتسمت غلبتها بالمبالغة والتحويل، والتعميم والأحكام الجاهزة المتشابهة بين معظم هذه الدراسات الضخمة. لدرجة أن القارئ لهذه الأبحاث قد يتوهم بأن كاتبها شخص واحد وليس العشرات من الأشخاص. فقد بدت هذه الدراسات مبتورة الصلة بالمواضيع التي تدعي وتزعم بأنها محل عنايتها. ولكنها في الواقع كانت هي أي الدراسات في واد والمواضيع المدروسة في وادي آخر. والسبب في ذلك يرجع إلى إصرار الباحثين الفرنسيين على استخدام البحث العلمي لأهداف سياسية استعمارية واضحة لا غبار عليها. ويظهر أن إطلاق تسمية الأساطير على هذه الدراسات يعود بالدرجة الأولى إلى نزعتها الاستعمارية. تلك النزعة التي جردت هذه الدراسات من الصبغة العلمية ومن البعد الأكاديمي المتميز عادة بالوقار والالتزان.

وقد ندرك المغزى الحقيقي لهذه الدراسات التاريخية "الأساطير". إذا وضعناها في إطارها التاريخي والظروف التي ظهرت فيها وكذلك نوعية الأشخاص الذين أنجزوها.

الأسطورة القبائلية البربرية

والظاهر أن "الأسطورة القبائلية" تحتل الصدارة والريادة وبها بدأت سلسلة هذه الأساطير الاستعمارية فقد ظهرت في وقت مبكر بعد سبع سنوات من سقوط العاصمة تحت الاحتلال. كما يذهب الباحث الفرنسي- أجرون AGERON²⁰ إلى ذلك. ويذكر نفس الباحث أن الأسطورة القبائلية مرت بعدة محطات وأن سنة 1857 م كانت آخر محطة لها²¹، ومعنى هذا أنها لم تظهر في مرة واحدة وهذا دليل يثبت تورط الإدارة الاستعمارية في تحريك المسألة وتوظيفها سياسيا تبعا لمخططاتها الاستعمارية وفق تطور الأحداث على أرض الواقع.²²

ويعترف المؤرخ الفرنسي أجرون بأن سنة 1847 كانت محطة هامة وحاسمة في حياة هذه الأسطورة²³، ففي السنة المذكورة صدر كتاب القبائل الكبرى للضابطين فبار M. Fabar ودوما M. Daumas²⁴.

وأهمية كتاب القبائل الكبرى تكمن فيما تضمنه من آراء ومواقف وأيضاً في الآثار التي تركها خلفه، وإذا كنا لا نعرف الكثير عن الضابط الباحث فبار (ت 1849م) في حصار روما²⁵ فإن زميله وشريكه في تأليف الكتاب معروف على نطاق واسع²⁶، و يبدو أن تقديم نبذة عن الحياة الحافلة للجنرال دوما قد يفيد في فهم طبيعة العصر الذي عاش فيه وقد يفيد أيضاً في معرفة الأبعاد الحقيقية التي كان الكتاب المذكور يهدف إلى تحقيقها. هو دوما (ملشيور جوزيف أجين) Joseph Melchior Eugène (1803-1871)²⁷، (جنرال، سناتور وكاتب) هكذا وصفه أحد الذين ترجموا له والظاهر أن الرجل كان عسكرياً محترفاً، فقد التحق بالجيش وهو في مقتبل عمره في التاسعة عشرة لتحديداً. وبعد خمس سنوات من احتلال الجزائر العاصمة انتقل دوما إلى هذه الأخيرة، وتحت قيادة المارشال (برتراند كومت كلوزيل)²⁸ Bertrand comte Clauzel (1772-1842)²⁹ شارك في الحملة العسكرية على معسكر وتلمسان بالغرب الجزائري، وفي نفس الوقت انكب بحماس على تعلم اللغة العربية³⁰. و يقال أنه كان يعرف الوسط الجزائري جيداً³¹.

ومن سنة 1837م إلى سنة 1839م شغل منصب قنصل بمعسكر³²، وبعدها كلفه (مريشال دي لاموريسير كريستوف لويس) De la moriciere Christophe-Louis-Léon (1806-1865)³³ بقيادة الشؤون العربية بمنطقة وهران³⁴. كلفه الماريشال بيجو³⁵ (توماس روبرت دي لا بيكونري) Bugeaud Thomas Robert DELa piconnerie 1849-1748 بترأس شؤون الأهالي وهو واحد من تركوا بصاتهم على ما سمي بالمكاتب العربية³⁶ وفي سنة 1849م كلف العقيد دوما بإخماد تمرد بني سالم في ناحية الجزائر³⁷، وفي سنة 1853م، رقي إلى رتبة جنرال، وصار الجنرال سيناتورا في سنة 1857م³⁸، وكان لدوما شرف معرفة الأمير عبد القادر عن قرب وقيل أنه أطلع الأمير على نظم فرنسا وعاداتها وتقاليدها يوم كان هذا الأخير أسيراً بفرنسا³⁹، ومن بين كتابات الجنرال دوما: "بلاد القبائل الشرقية" صدر سنة 1846م، تقرير عن الوضع الحالي للمجتمع العربي "صدر سنة 1845⁴⁰"، "تربية الباز في الجزائر"⁴¹ خيول الصحراء، وقد ساعده الأمير عبد القادر في تأليف هذا الكتاب⁴²، كما صدر لدوما كتاب آخر في سنة 1857م عن "القبائل"⁴³.

وآخر كتاب ألفه الجنرال قبل رحيله سنة 1871⁴⁴ هو "الحياة العربية والمجتمع المسلم" الصادر سنة 1869م⁴⁵، وينبغي الإشارة هنا ما دمت أتحدث عن كتابات دوما إلى أن بعضهم اتهم الجنرال باستغلال المستعرب ونصير المسلمين الجزائريين "توماس إسماعيل إيرين" Ismaël Urbain Thomas صاحب القلم السيلال الذي كان يكتب المقالات والكتب في حين كان دوما يكتب بكتابة اسمه⁴⁶ ضم كتاب القبائل الكبرى⁴⁷ بين دفتيه اثني عشر فصلاً وقد تطرق المؤلفان إلى عدة قضايا جغرافية المنطقة وقصة احتلال الفرنسيين لبجاية والأمير عبد القادر ببلاد القبائل وصراع هذا الأخير مع الفرنسيين بنفس الجهة المذكورة وبهنا هنا **الفصل الثاني** الذي يتحدث عن حالة المجتمع القبائلي حسب تعبير الباحثين وقد تجاوزت صفحاته الخمسين، وفيه عاج الباحثان العسكريان عادات وتقاليد ومؤسسات هذا المجتمع، والفصل يختلف في منهجه ومحتواه عن بقية فصول الكتاب الأخرى، وهو أقرب إلى الدراسة الاثنوغرافية⁴⁸، والظاهر أن نظرية التنافر إن صح التعبير، والاختلاف، والتناقض بين العرب والقبائل في كل شيء -مهما كان صغيراً، أو كبيراً- هي التي حرص الباحثان عليها أشد الحرص. حيث كانت تطل على القارئ في كل صفحة من صفحات البحث تطرقاً الباحثان إلى عادات وتقاليد ومؤسسات مناطق عديدة من الجزائر زيادة على منطقة القبائل والظاهر أنها قاما بجمع مادة البحث منذ النصف الثاني من ثلاثينيات القرن التاسع عشر حتى سنة نشر الكتاب أو قبل ذلك بقليل لأننا نعرف أن دوما التحق بالجزائر سنة 1835م.

والفصل في معظمه عبارة عن مقارنة بين عادات وتقاليد ومؤسسات منطقة القبائل مع عادات وتقاليد ومؤسسات مناطق أخرى من الجزائر. لم ترد في الكتاب بأسمائها، وإنما نسبت إلى العرب، ويحاول الكاتبان إيهام القارئ أن لا شيء يجمع بين القبائل والعرب، لا **رابطة دينية أو لغوية** ولا عادات ولا تقاليد مشتركة، ولا حتى **مصالح مشتركة**، بل حتى الملامح والبنية مختلفة تماماً "وجه العربي بيضوي الشكل وسواعده طويلة بينما القبائلي مربع الوجه وقصير الرقبة، العربي لا يخلق ذقنه إطلاقاً بخلاف القبائلي الذي يخلقه إلى غاية السن الخامسة والعشرين حيث تكتمل رجولته فيتترك لحيته كعلامة على نضجه"⁴⁹. لقد اكتشفا شعبين، لا شعباً واحداً⁵⁰ العداوة هي القاسم المشترك بينهما "إن العرب والقبائل لا يتفقون إلا في محور واحد هو الكراهية فالقبائلي يكره العربي والعربي يكره القبائلي فهذا المقت المتأجج لا يمكن تفسيره إلا بشعور تقليدي توارثته الأجيال، كره بين عرق الغزاة (أي العرب) والعرق المهزوم (أي القبائل) ذلك ما يؤكد الواقع المعيش بوجود لغتين مختلفتين"⁵¹.

الباحثان زعما أنها وجدا أخيرا الأصل الذي ينحدر منه القبائل "إن الدم المسيحي لا يزال يسري في عرق القبائلي وإن جزءا من القبائل أصليين وآخرون من أصل **جرماني**"⁵² وذهبا إلى حد التشكيك في عقيدة سكان المنطقة : **لقد قبلوا القرآن تحت وطأة السيف ولكنهم لم يعتنقوا المبادئ الواردة فيه**"⁵³.

أما من الناحية السياسية: "فإن بلاد القبائل عبارة عن **سويسرا البدائية** فهي تتألف من قبائل مستقلة عن بعضها البعض على الأقل من ناحية الحقوق وهي تحكم نفسها بنفسها في شكل مقاطعات وحكومات مختلفة"⁵⁴. والقبائل والعرب ليس لهم عادات وتقاليدهم مشتركة. أو حتى متشابهة كما أشير إلى ذلك سابقا. ولكن بعض العادات القبائلية تتشابه مع مثيلاتها الفرنسية⁵⁵. وهم أي القبائل الأقرب إلى (الفرنسيين)⁵⁶. "العربي بدوي غير مستقر يعيش تحت الحيمة، أما القبائلي فهو مستقر مرتبط بالأرض ويعيش في منزله"⁵⁷، إن هذه الدراسة الاثنوغرافية المزعومة تنتهي إلى ما سماه سعد الله بسلاح **تقسيم الجزائريين**.

إن هناك أدلة كثيرة تؤكد عدم موضوعية، ونزاهة دراسة دوما، و زميله فبار. ذلك أننا لا نتوقع من الجنرال دوما بالذات أن يكون منصفاً. هو الذي قاد الحملات العسكرية للاعتداء على الجزائريين في قراهم ومدناهم وفي مدنهم، فأحال نهارهم إلى ليل حالك. وهو الذي كان يتلقى الأوامر من **عتاة المجرمين**، وكبار القتلة الذين استباحوا دماء الشعب الجزائري وانتهكوا حرمانه من أمثال بيجو، وكلوذيل، لاموريسير الذين ذكّرتهم سابقا. دوما لا يخفي في بعض كتاباته ما كان **الاستعماريون يخططون له بليل**. فقد كتب قائلا « إن هناك عدة اعتبارات تدفع اهتمام الرأي العام بفرنسا بمنطقة القبائل مساحتها الواسعة، خيراتها، سكانها قربها من الجزائر العاصمة كونها منطقة للتبادل التجاري اشتهاها بالزراعة **الاستقلالية** منعها الناتجة عن الجبال التي تحيط بها وأخيرا فقد شهدت السنوات الأخيرة اختلاف وجهات نظر عديدة حول السياسة الواجب إتباعها نحوها»⁵⁸.

يمكن اعتبار كتاب القبائل الكبرى أو عبارة أخرى الفصل الثاني منه، بمثابة برنامج سياسي، أو عبارة أخرى **مشروع استعماري واضح** لا دراسة **أكاديمية محايدة**. بدليل انتقال المؤلفين إلى العمل والنشاط اليومي لتجسيد المشروع الوارد في الكتاب، والداعي إلى «التكامل بين الشعب المعلم الفرنسي والشعب التلميذ البربري بين عمال صبورين وصناعيين وبين الطبقة المتفوقة، و المسيرة في آن واحد»⁵⁹.

العربي الشرير، والقبائلي الطيب هي الفكرة الأساسية التي خرج بها الباحثان، من المقارنة بين القبائل والعرب. ويبدو أن هذه الفكرة كانت جاهزة ومعدة سلفا منذ وقت طويل قبل الحملة العسكرية الفرنسية على العاصمة الجزائرية سنة 1830 م. ولكنها كانت تحتاج فقط لتزيين وإخراج لا يخلو من بريق حتى تقنع من يراد اقناعه. والظاهر أن صاحب البحث كان يهدفان لتحقيق هدفين الأول ظرفي يخدم مسعى فرنسا في سبيل نشر سلطتها على كامل الأرض الجزائرية. ويتمثل الهدف الظرفي في استدراج الزعامات المحلية للتفاوض لتسليم منطقة القبائل للفرنسيين دون قتال أو مقاومة. لأن الفرنسيين كانوا يدركون بأن احتلال المنطقة لن يكون سهلا. ويبدو أن الأوامر أعطيت للجند الفرنسيين للترويج لفكرة «العربي الشرير، والقبائلي الطيب» بين السكان.⁶⁰

والهدف الثاني بعيد المدى ذلك إن دراسة فبار ودوما دفعت الأسطورة القبائلية إلى الواجهة ودشنت «ما يسمى بالسياسة البربرية المعادية للعرب»⁶¹ سياسة فرق تسد التي أدارتها فرنسا ببراعة طيلة وجودها الاستعماري بالجزائر.⁶² وقد تفنن الفرنسيون في استعمال هذا السلاح، أولا: **بين فئات السكان** "الحضر ضد الترك. ثم الحضر ضد العرب والعرب ضد الحضر الكراغلة. ثم اليهود ضد الحضر بأنواعهم. جرى هذا في المدن الجزائر، تلمسان، مستغانم، قسنطينة، البليدة المدية".⁶³ ثانيا: **ثم داخل الفئات نفسها** العرب: "ضربوا القادة ببعضهم أيضا في غرب البلاد أو في شرقها. ففي الشرق شجعوا فرحات بن سعيد من عائلة بوعكاز ضد شيخ العرب ابن قانة الذي كان صهر الحاج أحمد". وفي الغرب فصلوا مصطفى بن إسماعيل، و محمد المازري ثم سيدي العربي، عن الأمير عبد القادر".⁶⁴ **القبائل**: وعندما دخلوا بلاد القبائل. وسعوا الخلاف بين العائلات المؤثرة عائلة **أورايح**، ضد عائلة **أوقاسي** وعائلة **أوقاسي**، ضد عائلة **سيدي الجودي**، وهذه ضد عائلة **ابن زعموم**".
"واستمر الضرب على هذا الوتر طيلة عقود ضد العرب بالعرب. والبربر بالبربر".⁶⁵

إن فكرة تقسيم أبناء الوطن الواحد إلى أعراق عديدة وضرب هذا بذاك ظهرت في مصر أثناء حملة نابليون قبل أن تشد الرحال إلى الجزائر... ففي كتاب وصف مصر الشهير وردت دراسة كتبها كوستاز عن النوبة والنوبيين.

ومن جملة ما كتبه قوله: «ترى من أين جاء لهذه الأمة كل هذا السمو الأخلاقي الذي يميزهم بدرجة كبيرة عن جيرانهم العربان الذين تبدو اللصوصية عندهم مهنة شريفة بل يمكن القول مهنة قومية!

أينبغي أن نبحث عن السبب في ذلك في نوع الحياة التي يحياها كل من هذين الشعبين!»⁶⁶.

ويقول أيضا «و لغة النوبيين رقيقة ليس فيها على الإطلاق هذه الأصوات الحلقية الشائعة في اللغة العربية والتي تبدو غريبة على الأذن الفرنسية حتى لتصدهما عند سماعها إياها لأول مرة ومن الممكن كتابة هذه اللغة (النوبية) بحروف الهجاء الفرنسية دون أن يتحور بذلك نطق الكلمات، ولقد قمت بعدة تجارب في هذا الصدد ونجحت باعتراف أبناء النوبة أنفسهم⁶⁷». وفي الحقيقة فإن ملامح النوبيين أقرب إلى ملامح الأوربيين منها إلى ملامح الزنوج⁶⁸. ويبدو أن بعض الجهات في فرنسا نفسها لم تكن راضية تماما عن هذا الطرح الاستعماري. وقد علمتنا تجارب سابقة ولاحقة أن هذه المواقف تمثل دائما الاستثناء لا القاعدة وسط محيط يعلن كراهيته ويجاهر بعداوته لكل ما له علاقة بالعرب والمسلمين.

ومن الذين لم يترددوا في إدانة هذا الطرح وفضح أبعاده الاستعمارية، غوستاف لوبون (Gustave Le Bon 1841-1931) الذي كتب قائلا: « وظهر مما تقدم خطأ كثير من المؤلفين المعاصرين الذين رأوا أن يفرقوا بين العرب والبربر وذلك عندما تكلموا عن سكان بلاد الجزائر »⁶⁹.

«فرعموا أن البربر أهل حضر وزراعة، وأن العرب أهل بدو، وانتهوا إلى قولهم إن البربر أهل للتمدن وإن العرب غير أهل له». «ولكن نتيجة مثل هذه، تقوم على أساس باطل، وذلك أن العرب، والبربر أهل حضر، وأهل بدو على سواء⁷⁰». وأن هذين الطرازين يصدران عن البيئة التي يكونون فيها بالحقيقة، فترى العربي حضريا دائما في البقاع الخصبة من جزيرة العرب ومصر والجزائر. وتراه بدويا في الصحارى الرملية من تلك الأقطار⁷¹.

بدأت الأساطير تتوالى وتتكاثر بعد الأسطورة القبائلية، مثل أسطورة الحضر والبدو وأسطورة الشمال والجنوب. وأسطورة القبائل الكبرى والقبائل الصغرى وأسطورة الغرب والشرق وأسطورة المسيحية والإسلام⁷². والكراهية والعداوة هي القاسم المشترك بين جميع هذه الأساطير ففي أسطورة الحضر والبدو على سبيل المثال يسعى الحضري جاهدا للقضاء على البدوي وهذا الأخير يتربص بغريمه الحضري وهكذا

ويبدو أن عدة تخصصات من العلوم الإنسانية ساهمت في صياغة هذه الأساطير، وقد امتدت الحمى إلى الأدب أيضا⁷³. حيث كتبت روايات استوحيت في معظمها هذه الأساطير⁷⁴.

¹ Ernest Mercier, Histoire de l' Afrique septentrionale (Berbérie) Depuis les temps les plus reculés jusqu' a la conquête française, (1830) Paris , 1888,T, 1.p.2.

² IBID T.1, P 3.

³ Eugène Albertini ,Stéphane Gsell (1864-1932) Bibliographie des Travaux de Stéphane Gsell in Revue africaine(N° 73 année1932) pp21-53.

⁴ Stéphane Gsell , Histoire et historiens de l'Algérie paris ,1931 ,p.2.

⁵ Stéphane Gsell , op. cit. p 2.

أنظر كذلك: ردود محمد الشريف ساحلي على غزال، تخليص التاريخ من الاستعمار، ترجمة محمد هناد محمد الشريف بن دالي حسين، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، الجزائر، 2002، ص ص: 10-45-13

أنظر ردود هشام الصفدي على غزال، نحو وعي أفضل لتاريخ الجزائر، مجلة الأصالة، العدد، 8، السنة الثانية، جمادي الأولى، 1392، ماي -جوان 1972، ص ص: 176-172.

أنظر كذلك أحمد السليمان: تاريخنا القديم من مرآة الغرب، مجلة الدراسات التاريخية، العدد5، السنة 1408 - 1988، ص: 46.

أنظر كذلك المقدمة التي كتبها أبو القاسم سعد الله، لكتاب عثمان الكعاك، موجز تاريخ الجزائر، بيروت 2003، ص، 6.

يبدو أن غزال بحكم تخصصه في تاريخ المغرب القديم كان مقربا جدا من كبار رجال الحكم، يقول العروي: اهتمت الإدارة الاستعمارية الفرنسية اهتماما بالغا بدراسة تاريخ المغرب القديم كان ولاية الجزائر، والمقيمون العامون في تونس، والمغرب الأقصى يعتنون شخصا بالحفريات، كما كانت إدارة الداخلية هي الساهرة على مصلحة الفنون الجميلة، فلا غرابة إذا وجدنا في البحوث التاريخية التي صدرت آنذاك أثارا واضحة للفكر الاستعماري، أنظر عبد الله العروي، مجمّل تاريخ المغرب، (ط5)، المركز الثقافي العربي، 1996، الكتاب الأول، ص: 47.

⁶ محمد العربي معريش: مقارنة بين ما تناول المؤرخون الفرنسيون لبعض قضايا تاريخ المغرب الأقصى، مجلة الدراسات التاريخية، الجزائر، العدد الخامس، ص، 177.

⁷ أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، (ط3) بيروت، 1990، ج 1، ص 19-20.

المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية بالجزائر (1830-1962) الأسطورة القبائلية البربرية نموذجا

⁸ Stéphane Gsell ,op.cit, p-8, Charles –André julien histoire de l'Algérie contemporaine presses universitaires de France ,1964,T1,P,162.Benjaminestora ,histoire de l'Algérie coloniale 1830-1954 paris éditions la découverte 1999, p: 18.

⁹ أنظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج،6،ص،82.

¹⁰ Charles –.André julien, op.,cit , p: 162.

¹¹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 6، ص،80.

¹² Charles –.André julien, op.,cit , p: 163..

¹³ أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه، ج 6، ص: 87.

¹⁴ أبو القاسم سعد الله، آراء وبحث في تاريخ الجزائر، ج 1، ص ص: 18-19.

¹⁵ أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ج،1، ص: 18.

¹⁶ P.Lucas, J.C Vatin L'algerie des anthropologues, Paris,1982 p: 13.

¹⁷ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج،6،ص،87.

¹⁸ أبو القاسم سعد الله، آراء وبحث في تاريخ الجزائر، ج 1، ص: 19.

¹⁹ أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج،6،ص،87.

²⁰ أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ج،6،ص،87.

²¹ أبو القاسم سعد الله، آراء وبحث في تاريخ الجزائر، ج 1، ص: 23.

²² Stéphane Gsell ,op.cit, p-8.

²³ Stéphane Gsell ,op.cit, p-9.

²⁴ R .Le tourneau, le moyen âge et les temps modernes in revue Africaine, centenaire de la société historique Algérienne (N° -446-449-année 1956), p: 123.

²⁵ Alfred Bel, René Basset in revue africaine (N 65,1924), pp :12-19.

²⁶ M.H. masse les études arabes en Algérie 1830-1930, in Revue africaine (N°74, 1933), p:235 Revue africaine (N° 49, année 1905) pp 303-351.

²⁷ جمال قنان، مدرسة التاريخ الاستعماري بين الأيديولوجية و الموضوعية حول بعض قضايا تاريخ الجزائر المعاصر، مجلة الدراسات التاريخية، الجزائر، العدد الخامس، ص: 130.

المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية بالجزائر (1830-1962) الأسطورة القبائلية البربرية نموذجاً

"لا أحد يستطيع اليوم وفي المستقبل القريب أن يحجر دراسات ما قبل تاريخ المغرب من قبضة أساتذة جامعة الجزائر الاستعمارية غير أن همهم السياسي واضح إلى حد أن تعريته لا تستلزم التسلح بالتقنيات الحديثة إن القاري العادي المشارك في علم التاريخ، يرى بوضوح الهوة التي تفصل نتائج بحوثهم المتخصصة. فمن حقه أن يطالبهم بأن يتحلوا على الأقل بالخذر".

أنظر: عبد الله العروي: المرجع نفسه، الكتاب الأول، ص: 49.

وحول الآثار السلبية للمدرسة التاريخية الفرنسية الاستعمارية يقول سليمان مظهر: "وهكذا تشكل المدرسة الاستعمارية عائقاً في وجه البحوث الجديدة، إذ يبقى الباحث متمسكاً بالمراجع التي تحتوي عليها. وبكلمة أخرى فإن المدرسة الاستعمارية عرقلة في طريق التحليل والإنتاج المبدع".

أنظر: حاجة علم النفس الاجتماعي للبحوث التاريخية ضغط المدرسة الاستعمارية على تطور البحث

العلمي في ميدان علم النفس الاجتماعي، مجلة الدراسات التاريخية، العدد الخامس، ص، 220.

²⁸ أنظر: محمد شريف ساحلي، المرجع نفسه، ص: 13.

²⁹ محمد شريف ساحلي، المرجع نفسه، ص: 11.

³⁰ محمد شريف ساحلي، المرجع نفسه، ص: 12.

³¹ Yves la Coste l'bn Khaldoun naissance de l'histoire passé du tiers monde édition) Paris 1980, p 87, plus et J. c. vatin ,l'Algérie des anthropologues, Paris, 1982, p 15.

³² Charles –Robert AGeron, histoire de l' Algérie contemporaine, presses universitaires de France, 1979, T 2,p 137.

³³ Ibid, T 2, p 138.

³⁴ Mahfoud Ka dache l'utilisation du fait Berbère comme facteur politique dans l'Algérie coloniale actes du premier congrès d'études méditerranéennes d'influence arabo- Berbère, Alger ,1973.p.276

³⁵ Charles–Robert AGeron ,op–cit, T 2, P 138.

³⁶ M.daumas et M. Fabar. la Grande Kabylie, études historiques, paris, 1847.

³⁷ Narcisse Faucon, le livre d'or de l'algérie ,paris, 1889 T 1, p 197.

³⁸ Ibid ,T,1,PP196 –197.

³⁹ أنظر ترجمته في Narcisse Faucon, op.cit , T1, pp196–197.

⁴⁰ Narcisse Faucon, op.cit, T1, p: 196.

المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية بالجزائر (1830-1962) الأسطورة القبائلية البربرية نموذجا

⁴¹ Paul Azan , **les grands soldats de L'algerie** , publication du comité national métropolitain du centenaire de L'algerie pp13-22.

⁴² Narcisse Faucon, **op.cit**, T1, p: 196.

⁴³ Paul Azan, **op .cit**, pp80-83.

⁴⁴ أنظر مقدمة جفول لكتاب Daumas Mœurs et coutumes de l'Algérie, p 16

⁴⁵ Narcisse Faucon, **op.cit**, T1, p: 197.

⁴⁶ Ch. ,R ,AGeron : **l'Algérie algérienne de napoléon à de gaulle**, paris , 1980, p 20 .

"كان إسماعيل إيرين ربما هو أقرب الفرنسيين إلى المجتمع الجزائري . فهو بحكم اعتناقه للإسلام ومعرفته للغة العربية قد جعل نفسه واحدا من هذا المجتمع يحس بإحساسه ويفهم تقاليده، وهو من جهة أخرى سانسيموني يؤمن بترقية المجتمع الأهلي وإخراجه من التخلف مع المحافظة على بعض قيمه في وجه الغزو الذي يتعرض له . وفي سنة 1840 تزوج إيرين من امرأة عربية من قسنطينة اسمها (جرمونة) وعاش معها فترة طويلة في الجزائر العاصمة وأنجب منها بنتا سماها (بابة) كان زواجه على يد القاضي المسلم وعاش حياته مسلم العقيدة عربي المظهر واللسان وكان محل تقدير الجزائريين كما كان رؤساؤه الفرنسيون يحترمونه ويحتاجونه ولكن بعضهم كانوا يسيئون إليه ويحتقرونه لاعتناقه الإسلام ولزواجه من عربية ولون بشرته وميلاده غير الشرعي ويبدو أنه ظل على إسلامه إلى أن أراد الزواج من فرنسية فكان عليه أن يعود إلى المسيحية ويتزوجها وكان عمره إذاك خمسة وخمسين سنة . وقيل أنه أدخل ابنته في المسيحية أيضا " أنظر أبو القاسم سعد الله. **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 6، ص: 442-443

⁴⁷ M,Daumas et M. Fabar , **la grande Kabylie**, études historiques paris, 1847.

⁴⁸ Charles – R AGeron, **histoire de l'Algérie contemporaine**, T 2, pp 137-138.

⁴⁹ M Daumas et M Fabar ,op.,cit. , p21

P.Lucas,J.C Vatin, **L'algerie des anthropologues**, Paris, 1982 ,p 105.

أنظر كذلك الترجمة العربية لكتاب **الجزائر الأنثروبولوجيين**، ترجمة: محمد يحياتن وآخرون، الجزائر، 2002، ص112.

⁵⁰ M Daumas et M Fabar ,op.,cit,p75.

P.Lucas,J.C Vatin, **op.cit**,p 108.

ليكا وفاتن، المرجع نفسه، ص118.

المدرسة التاريخية الاستعمارية الفرنسية بالجزائر (1830-1962) الأسطورة القبائلية البربرية نموذجاً

- ⁵¹ أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ط2، الدار العالمية للكتاب، 1996، ص5.
- ⁵² أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ط2، الدار العالمية للكتاب، 1996، ص5.
- ⁵³ أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ط2، الدار العالمية للكتاب، 1996، ص5.
- ⁵⁴ أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ط2، الدار العالمية للكتاب، 1996، ص5.
- ⁵⁵ أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ط2، الدار العالمية للكتاب، 1996، ص5.
- ⁵⁶ أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ط2، الدار العالمية للكتاب، 1996، ص5.
- ⁵⁷ أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ط2، الدار العالمية للكتاب، 1996، ص5.
- ⁵⁸ أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ط2، الدار العالمية للكتاب، 1996، ص5.
- ⁵⁹ أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ط2، الدار العالمية للكتاب، 1996، ص5.
- ⁶⁰ ليكا وفاتن، المرجع نفسه، ص 112 .

⁶¹ Charles –Robert AGeron ,op cit, T 2, p.138.

- ⁶² أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي، ج، 6، ص ص: 299-300.
- ⁶³ أبو القاسم سعد الله المرجع نفسه، ج، 6، ص ص: 202-302.
- ⁶⁴ أبو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ج 6، ص ص: 202-302.
- ⁶⁵ أبو القاسم سعد الله : المرجع نفسه، ج 6، ص: 303.
- ⁶⁶ علماء الحملة الفرنسية، وصف مصر دراسات عن المدن والأقاليم المصرية، ترجمة: زهير الشايب: مهرجان القراءة للجميع، 2002، ج 3، ص: 195.
- ⁶⁷ المصدر نفسه، ج 3، ص: 196.
- ⁶⁸ المصدر نفسه، ج 3، ص: 198.
- ⁶⁹ غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتو : مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، 2000، ص 251
- ⁷⁰ غوستاف لوبون، المرجع نفسه، ص 252.
- ⁷¹ غوستاف لوبون، المرجع نفسه، ص 252.

⁷² Lucas et vatin ,op cit, p 15.

⁷³ Sakina Mes Saadi, les romancières coloniales et la femme colonisée, Alger, 1990, pp.59-80.

⁷⁴ Ibid, pp 17-58.